

يونس في بطن الحوت

قصة بقائه بعد كنفار مطوي

ما فيه ويحاسيني أيضا ويتهمني بالسرقة والاهمال وتطفيش الزبائن . وقد صبرت وشلت الجمل حتى تعبت وصعبت علي نفسي من السدل والنكد والاهانة والشتائم بسبب وبغير سبب . وكان لا بد ان افكر في حل يضمن لنا لقمة العيش ، ويريحنا من غارات ابي علينا ويسترنا من فضائحه . فقررت ان اسافر الى المركز واسأل عن رجل أصله من بلدنا اسمه حسان يشتغل وكيل محام هناك واعرف منه ان كان من الممكن ان ارفع دعوى الحجر على ابي . وهكذا سافرت في ذلك اليوم ووصلت متعبا في المساء الى الفندق الرخيص الذي دلوني على تلك الحجره فيه .

وفتحت عيني فجأة على اثر احساس بانفاس حارة تصدم وجهي . وكان اول ما وقعت عليه وجه احمر منتفخ لم أتبين ملامحه في اول الامر شيئا . واعتدلت في الفراش محاولا ان اعترض عن وجودي في الحجره وان اشرح للرجل الذي كان منهمكا في خلع ملابسه انه لم يكن لي يد في مشاركته في الحجره في تلك الليلة . وجاءني صوت عميق خشن يقول : مساء الخير . فرددت السلام مرتبكا ورفعت يدي الى رأسي فاصلحت شعري واعتدلت في جلستي على الفراش .

– كنت تشخر شخيرا عاليا . يظهر انك تعبان . نظرت اليه ولاحظت وجهه الضخم ورأسه الصلعاء والشعر الكثيف على صدره وقلت :

– من السفر فظ . ارجو الا اقلقك الليلة .

– ابدا ابدا . انا دائما نومي ثقيل .

ثم بعد لحظة وهو يرتدي جاكته البيجامه .

– غريب ؟

– نعم . جئت استشير وكيل محام من بلدنا في مسألة . وربما رفعت دعوى في المحكمة .

– في المحكمة ؟ اذن فسوف تنظر امامي .

اعتدلت اكثر في الفراش وسألت :

– سعادتك ... ؟

فقاطعتني قائلا : نعم . قاضي في المحكمة الجزائية . احضر الى هنا يومين في الاسبوع وارجع لمر بعد الظهر .

وازداد انتباهي فاردت ان انتهر الفرصة واستشيريه في حكايتي . ورحت اشرح له قصتي مع ابي وهو يستمع الي في هدوء . وحين انتهيت من سردها عليه سألتني وهو يبتسم :

– ما اسمك ؟

ومع ان السؤال بدا لي خارجا عن الموضوع فقد اجبت : يونس .

يونس عبد العظيم .

فاطرق برأسه حتى كادت تلامس الشعر الاسود الكثيف في صدره ، وقال : يونس هيه . . ماذا تريد ؟

لم اكن اعلم انها ستكون ليلة سوداء ، ولا كنت اتصور انني ساحمل في اخرها الى المستشفى كما يحمل النعش على الاعناق .

فبعد ان اعطيتهم المعلومات اللازمة عني ، وقيدوا اسمي ورقسم بطاقتي على استمارة في حجم الكف ، قادوني الى حجره في السور العلوي ، في نهاية ممر مظلم . قالوا لي ليس عندنا غيرها ، وسيشاركك فيها محمود بك ، عندما يأتي متأخرا كعادته بعد سهرة طويلة في الكازينو . ولم يكن يهمني ان اعرف شيئا عن محمود بك ، فلم اسألهم عنه ، بل دخلت الى الغرفة واقفلت بابها وراني . كنت متعبا من السفر فسي اوتوبيس البراري محملا برائحة العرق والتراب والزحام ، وكان كل همي ان استسلم للنوم في اسرع وقت . والقيت نظرة سريعة على الحجره ، ولم يكن بها اكثر من دولا ب خشبي صغير وسرير مستطيل بدا لي لكأبته كأنه تابوت ، فوجه ملأه ببيضاء عليها بقع غامقة ، ولحاف حال لونه وبدت اثار العرق على اطرافه المتسخة . والقيت بنفسي على الكرسي الوحيد الموضوع الى جانب السرير فخلعت ملابسها والقيتها كيفما اتفق . واخرجت بيجامتي من حقيبتني واسرعت ارتديها قبل ان يكبس علي النوم .

كانت متاعب اليوم قد ازدحمت علي فلم تبق في قدرة على التفكير فيها . لقد طردني ابي من البيت في اول النهار . صرخ في وجهي باعلى صوته : رح في ستين داهية واياك ان تعتب الباب والاقطعت رجلك . وحين حاولت ان ارد عليه بصق في وجهي وصفعتني . كان لا بد ان اغادر البيت وان اغور من وجهه كما قال . ولم يكن هناك فائدة من محاولة الصلح معه او استعطافه بعد ان اهانني امام الناس اكثر من مرة . وبكت امي وهي تزاني اعد حقيبتني وقالت : ابوك يا ابني على كل حال . رح بس يده ومصيره يرضى عنك . وصرخت فيها وقلت ان العيشة معه اصبحت تكفر ، وان بلاد الله واسعة ، وقلت انني ساعرفه شقله وآخذ حقي منه . وان شاء الله ساحجر عليه وادخله المورستان . واعطتني امي جنيتها وضعته في جيبني مع الجنيهين اللذين كانا معي ، ورزعت الباب خلفي وانا اسمعها تدعو لي بان يصلح الله حالي ويخزي عني الشيطان .

كان لا بد من وضع حد لتصرفات ابي التي زادت عن كل حد . لقد نسيتنا انا وامي واخوتي الصغار ، وكلهم في المدارس ويستحقون التربية ، ولم يعد يسأل عنا بقرش واحد . وليته تركنا في حالنا ندبر معاشنا بايدينا . فدكان البقالة الذي نعيش منه يكفيننا ويستر علينا ، ولكنه لطح اسمنا بالوحل ، حتى صار الناس كلهم فسي بلدنا يرددون فضائحه ويأكلون وجوهنا بتظاههم بالعطف علينا . لم يكتف بان يهجر البيت ليعيش مع هائم الغازية – وبعض الالسنه تقول انها كانت خادمة في بيت العمدة الذي لا يفيب عن مجلسه – بعد ان شاخ وزاد على الستين ، بل كان يأتي غاضبا الى الدكان كل يوم والثاني ويفرغ الدرج

أفلت مني الرد الطئش كانه اصرخ في حلم . فتهفت : اريد العدالة !

زاد من تقطيب وجهه ومسح ذفته بكفه قبل ان يقول : يونس . ويبحث عن العدالة : نفس الحكاية القديمة !

لم افهم شيئاً فقلت : هل ترى سعادتك فائدة في الدعوى ؟ فوقف واخذ يتمشى في الحجرة التي بدت ضيقة وهو يدرعها بخطواته الواسعة المتأنية ثم وقف فجأة واثار الي بيده الضخمة : هل تعرف ماذا جرى له ؟

سألت في حيرة : لمن يا سعادة البية ؟ فقال في عصبية : ليونس طبعاً . قلت لك ليونس ! قلت وقد ازدادت حيرتي : واين جرى له هذا ؟ قال كأنه لم يسمعي : في جوف الحوت طبعاً ! ولم افهم عن اي شيء يتكلم فأريت من الخير ان اسكت . وزادت مخاوفي وانا اراه يقترب من السرير ويشخط في كانه يوقظ ميتاً: عار عليك الا تعرف !

بلعت ربقي واخذت افتش في رأسي عن كلمة اهدته بها واعتذرت له بانني رجل غريب ولا اعرف عن الموضوع شيئاً . ولكنني اطمانت قليلاً حين رأيت يدور على نفسه ويسير خطوات في الحجرة ثم يقف في وسطها تماماً . ويشبك ذراعيه حول صدره ويحك ذفته بيده ثم يخطب قائلاً :

— الحقيقة ان الاراء مختلفة في هذه المسألة. مختلفة كل الاختلاف حتى انني اعذر اذا اكتشفت انها متعارضة مع بعضها . هناك ممن يقولون مثلاً ان يونس بعد ان يس من اهل نينوى سار السى شاطيء البحر . وهناك من يقولون ايضا ان الله هو الذي طرده بنفسه من

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق . ل

- المثقفون — رواية جزآن
ترجمة جورج طرابيشي 1400
- انا وسارتر والحياة
ترجمة عابدة مطرجي ادريس 400
- مغامرة الانسان
ترجمة جورج طرابيشي 150
- الوجودية وحكمة الشعوب
ترجمة جورج طرابيشي 170
- نحو اخلاق وجودية
ترجمة جورج طرابيشي 220
- بريجيت باردو وآفة لوليتا
150
- قوة الاشياء — جزآن
ترجمة عابدة مطرجي ادريس 1100
منشورات دار الاداب

المدينة العظيمة . وعلى كل حال فقد كان من رايه انه فشل في مهمته وانه لم يعد هناك مبرر لحياته على الاطلاق . تستطيع ايضا ان تقول انه كان خجلاً من ان يراه الله على هذه الحال ولم يعرف اين يداري وجهه من الخجل . وبينما كان يرسل بصره على البحر رأى جسماً ابيض هائلاً يطفو على سطح الماء من بعيد . كان يمكن ان يظنه سفينة عظيمة لسولا انه رآه يطفس بعد قليل . فأدرك بخبرته الطويلة بالحياة في شواطيء البحار انه حوت عظيم ، وتمنى من قلبه لو اقترب الحوت منه وفتح فمه وابتمله . وانتهاز فرصة وجود سفينة على الشاطيء كان ملاحوها يستعدون لرحلة صيد فركب معهم . وعندما توسطت بهم السفينة البحر ورأوا الحوت مقبلاً عليهم والسفينة تهتز كالريشة على سطح الماء وجد يونس الفرصة سانحة لتحقيق امنيته . فقفز من السفينة الى الماء ، وكان الحوت ساعتئذ فاتحاً فمه الرهيب فأصرع يونس فقفذ بنفسه فيه .

قلت لاؤكد انني اتابع الكلام وامنع شراً يمكن ان يلحق بي فسي كل لحظة :

— هل تقول سعادتك انه قذف بنفسه داخل الحوت ؟ فقال في حماس الاطفال : عليك نور . تمام كما تقول . والآراء تختلف هنا ايضا فيما فعله في جوف الحوت . ماذا تظن انه فعل هناك؟

قلت وانا اکتّم الضحك : وماذا يستطيع ان يفعل يا سيدي ؟ الا اذا كانت اللقمة في المعدة تفعل شيئاً .

فهز رأسه في أسف وعاد يقول : أنت مخطيء . . لقد ظل حياً كما يعلم الجميع . ثلاثة ايام وثلاث ليال . ولكن ماذا فعل في هذه العدة ؟ هذا هو موضع الخلاف .

خلص ذراعيه من على صدره وشبكهما خلف ظهره واخذ يسير في الفرفة محني الظهر وهو يقول : البعض يقول انه بمجرد ان دخل جوف الحوت اخذ يفتش عن ركن منعزل يلجأ اليه . وقد تمب بالطبع ساعات طويلة قبل ان يجد هذا الركن البعيد ، خصوصاً اذا عرفت انه كان يسير في الظلام ويصطدم بأنواع مختلفة من الاسماك وطيور البحر وصخور اللؤلؤ والمرجان . وفي ركنه البعيد استطاع اخيراً ان يخلو الى نفسه ويحاسبها ويراها واضحة كأنه يضعها على كفه . بكى كثيراً ودعا الله ان يريه ، ويفر له ، بل وربما توسل اليه ان يعفيه من عمله . ويمكن ان تتخيل انه برغم بكائه وتوسلاته كان في غاية السعادة لانه وجد اخيراً المكان الذي يستريح فيه راحة مطلقة ، من العالم والبشر والتاريخ ، بل اذا شئت ايضا من السماء ومن الله نفسه . ولكن ربما لا يعجبك هذا الرأي فأقول لك ان هناك فريقاً آخر يرى رأياً مختلفاً . ماذا تظن انت ؟

فقلت وانا ادعو الله ان ينجليني من هذه الليلة ، وانفتحت حولي لابحث عن باب او شباك يمكن ان افلت منه اذا اضطر الامر : لا ادري يا سيدي . ولكن ربما كان متعباً مثلاً فنام ولم يشعر بشيء .

ولم تغد هذه الاشارة الى تعبي ورغبتني في النوم ، بل زادتني حماساً في بيان وجهة النظر التي لم اعرفها بعد : غلط ! غلط ! هذا خطأ يقع فيه اغلب الناس مثلك . فيونس لم يكن في موقف يسمح له بأن يغمض عينيه لحظة ، على الرغم من انه لو فتحهما فلن يرى شيئاً في الظلام . لقد مضى في رأي بعض الشراح يختبر المكان بكل حواسه . وكان اعتماده بالطبع على يديه قبل كل شيء اخر . كان اول همه فسي البداية ان يعثر على جدران الحوت او سطحه حتى يعرف طبيعة المكان الذي سيقم فيه . ولما يس من العثور على حدوده صرف نظره عن ذلك وبدأ يبذل جهوده للتعرف على الوسط الجديد لكي يستطيع ان يالغه ويتكيف معه . بالطبع كانت هناك عقبات كثيرة كان لا بد له ان يواجهها ويتغلب عليها او على الاقل يعترف بها ويستسلم لها . فالاسماك المتوحشة ، وبخاصة سمك القرش ، التي كانت تسبح في جوف الحوت

جوف حوت الا لكي يؤكد له بصورة ملموسة انه مثل غيره من الناس يعيش داخل حوت هائل لا يمكنهم ان يهربوا منه .

تلك يا صديقي هي بعض الآراء في هذه المسألة ، وهنا بالطبع آراء اخرى كثيرة مفصلة ومدعمة بالحجج والاسانيد لا اريد ان اشرحها لك حتى لا اطيل عليك ، فالظاهر انك تريد ان تنام وانك ...

ويظهر انني كنت بالرغم من مقاومتي الطويلة قد نمت بالفعل ، فأحسست بيد تهز صدري كأنها تريد ان تخترقه : يونس ! يونس !

فتحت عيني المحمرتين ، وفركتهما طويلا قبل ان اميز القاضي الذي كان محنيا علي كأنه يستمع الى دقات قلبي ويصيح : أنت يونس ! قلت لك أنت يونس نفسه ! يونس في بطن الحوت !

لا ادري الى الان ماذا فعلت . كل ما اذكره انني صرخت صرخة حادة ، مفاجئة ، مفزوعة كصرخة المقتول وهو يحس بالسكين الفاضية تخترق صدره قبل ان تصل الى القلب . وقبل ان اغيب عن الوعي خيل الي كان الابواب المجاورة لنا تفتح عنوة ، وصوت اقدام مسرعة تصعد السلم ، واناسا كثيرين تزدهم بهم الحجرة ، وتتعالى صيحاتهم وضجيجهم كان كل واحد يزق في بوق . بل لا اخفي عليكم انني - وانا ما زلت راقد في المستشفى اعالج من اثر الصدمة - لا اعرف الى الان ان كان ذلك كله قد حدث لي في حجرة الفندق أم ان ذلك الذي ظننته القاضي محمود كان مجنوننا اقتحم غرفتي او كان مجرد كابوس ثقيل جثم على صدري لحظة وانا في عز النوم . على انني على كل حال ما زلت اعالج من الصدمة ، وما زلت افكر في البحث عن وكيل المحامي حسان وفي امكان رفع دعوى الحجز على ابي الذي نسينا انا وامسي واخوتي الثلاثة ، كما طردني من بيته كما قال الى الابد .

عبد الغفار مكاوي

القاهرة

لم تكن تخلو من الخطر عليه وكان لا بد ان يبحث عن شيء حاد يتسلح به ، وكان من السهل عليه ان يعثر عليه ايضا في هذا العالم المتسم المزدهم بكل شيء . (طبيعي انك لن تسألني عن طعامه وشرايه فالسؤال هنا سطحي جدا ، اذ لم تكن المشكلة عنده ان يجد الطعام بل كانت المشكلة الحقيقية في ان يختار بين اصناف الطعام الحي والميت التي لا آخر لها والتي كان يكفي ان يمد يده ليقبض عليها . وطبعي ايضا ان السؤال عن المكان الذي كان يبيت فيه سؤال تافه أيضا اذ كيف يتعب في البحث عن فراش وثير هناك يمكنه ان يصنعه من الاعشاب او من اخشاب السفن الفارقة التي كان يتلها الحوت ؟) . هذان اذن هما الرأيان المتصلان بحياة يونس في جوف الحوت . اما اذا كنت تريد ان تسأل سؤالاً يستحق الاستماع فيمكنك ان تسأل عن صلته بالعالم الخارجي وكيف كانت تتم . هنا اعترف لك بان المسألة تزداد صعوبة . ولكن الراجع على كل حال انه - لكي يعرف الزمن مثلا ، او ليتنفس هواء نقياً منعشاً ، او ليطمئن على ان النور ما يزال يسطع في الخارج كلما طلعت الشمس - كان ينتظر حتى يفتح الحوت فمه من حين الى حين - وقد تمتد المسافة بين كل فتحة واخرى اياما او شهورا بل وقد تمتد في رأي البعض سنين طويلة - فيلقي نظرة على العالم الخارجي او يفكر جدياً في الخروج من جوف الحوت وان كان تفكيره كما تعلم يظل تفكيراً فحسب . اما عن الحوت نفسه فالآراء مختلفة جدا في شأنه ، حتى لتستطيع ان تقول ان هناك مدارس عديدة تقف لبعضها البعض بالرصاد وتحمس الى حد قد يصل الى اراقة الدماء من اجل هذا الرأي او ذاك . فالبعض يقول انه كان حوتا عاديا مثل كل الحيتان في بحار الدنيسيا ومحيطاتها ، والبعض الاخر يقول ان الحوت هنا مجرد رمز وانه في الحقيقة كان يعيش في اعماق العالم نفسه حين كان يعيش في جوف الحوت ، لا بل يذهب البعض الى حد القول بان الحوت هو الله نفسه ، ابتلع يونس لا لكي ينتقم منه او يمتحن صبره او يعذبه بل لان ذلك كان امرا طبيعيا لا بد ان يحدث ذات يوم ، وانه لم يتعلمه ويدخله في

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كولن ويلسون

ضباع في سُوهُو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يعق

رواية رائعة صور فيها مؤلف ((اللامتمي)) تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدة هي سر ابداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميع لغات العالم .

وقد حصلت ((دار الاداب)) على حقوق ترجمة هذه الاثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذه الرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصدر البعض الاخر باللغة الانكليزية .

منشورات دار الاداب

المن ٤ ليرات لبنانية .